

الرواية والأسانيد

وأثرهما في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام

الدكتور صالح أحمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي
استاذ بكلية الاداب / جامعة بغداد

درج الباحثون في دراسة الحركات الفكرية على الاعتماد على الكتب واتخاذها المعيار الرئيس والاساس لمعرفة تطور المعرفة ومدى الابداع فيها . ويرجع هذا الاعتماد الى ما للكتب من اهمية كبيرة في دراسة الفكر حيث انها تسجل المعلومات وتدونها فتقدم للقارئ في اي زمان او مكان مادة معتمدة اذا اجيد فهمها . غير ان الاقتصار على الكتب وحدها في دراسة التطور الفكري يوقع الباحثين في اخطاء كبيرة نظراً لان ازدهار الحركة الفكرية قد لا يتطابق مع كمية الكتب المؤلفة ، وان المعلومات واساليب التفكير ومدى المشاركة العامة وانتشارها قد يكون اوسع واعمق بكثير مما تعبر عنهالكتب ؛ وهذا يصح على كافة البلاد والعصور التي سبقت انتشار الورق بصورة خاصة ، حيث وفر انتشاره مادة جيدة ورخيصة للكتابة لحفظ المعلومات بالكتب بالشكل المألوف لدينا ، مما يمكن نقل هذه الكتب او حفظها ؛ اما قبل انتشار الورق الذي ظهر في العالم الاسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، فكانت مواد الكتابة على الحجارة او العظام او سعف النخل او القماش ، وكلها لا تيسر كتباً عامة بالمعنى المفهوم ؛ وقد يشذ عن هذا البردى ذى الصفحات الكبيرة الذي يمكن به تأليف الكتب ، رغم انه اغلى كلفة واقل دواماً من الورق ؛ والواقع ان معرفتنا بالانتاج الفكري المدون بالاغريقية ، ترجع بالدرجة الاولى الى انه كان مدوناً على اوراق البردى ، وان معظمه كتب لمكتبات الملوك والحكام ممن لهم امكانيات مالية وافرة تيسر للعلماء الحصول عليه ، ومكتبات تيسر حفظه .

غير انه لا يصح باى حال الاقتصار على المدون في الكتب للحكم على مدى تطور الحركة الفكرية التي قد تزدهر وتنشط بالمحاضرات والمناقشات والسماع ، فتصل مستوىً عالياً قد لا نفلح في رسم صورة دقيقة له ، ولكننا نستطيع الحكم على مداه بما يتوفر عليه من دلائل . ولعل اوضح مظهر على هذا هو في دراسة الحركة الفكرية عند العرب قبل الاسلام حيث تدل لغتهم الغنية ، وما نظمه شعراؤهم من قصائد واسعة في مفرداتها ، دقيقة في تعابيرها ، محكمة في اساليبها ، غنية بصورها واخيلتها وافكارها منتشرة في شعبيتها ، مما تقدم دليلاً لا ينكر على مدى النشاط الفكري، بالرغم من اننا لا نستطيع رسم معالمه بدقة ، لقلة توفر المكتوب ، وربما لقلة انتشار الكتابة ايضاً .

ومجيء الاسلام حدث فاصل في تاريخ العرب وتطورهم الفكري ؛ فقد اكد على اهمية المعرفة والعلم ، وحث على الاستزادة منها ، ودعا الانسان الى استعمال البصر والنظر والعقل والفكر لدراسة احوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل وللتمعن في ظواهر العالم والتفكير فيها، وقدم نظرة كونية ذات سمات معينة، وبذلك خلق دوافع ومحفزات قوية، وقدم صوراً جديدة ، ووضع أطاراً عاماً لافاق الفكر، واصبحت معارف العرب وخبراتهم السابقة مجرد مادة اولية في بناء الهيكل الفكري الاسلامي الجديد .

والمصدر الاول للمعرفة الدينية في الاسلام هو القرآن الكريم ، وهو الكتاب المنزل باللفظ والمعنى ، ونصه ثابت بالتدوين والحفظ ، ومصون من اي تلاعب او تزوير ، وكان الرسول (ص) يقرئ المسلمين ايات القرآن الكريم بعد نزولها ، ويحثهم على حفظها وكتابتها ، وكان له كتاب للوحي .

وقد حث الرسول (ص) على كتابة أيات القرآن الكريم ، و يروى ابو سعيد الخدري ان الرسول (ص) قال » لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن » (المصاحف للسجستاني ٤ ؛ تقييد العلم للخطيب ٢٩ ـ ٣١ ؛ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٦٣/١ ؛ مسند ابن حنبل ٣٩/٣ ؛ سنن الدارمي ٣٩/١) ؛ ويبدو ان القرآن الكريم كان عند وفاة الرسول (ص) مكتوباً في قطع متفرقة ، وعدد نسخه محدوده ، وقد جمعها الخليفة الاول ابو بكر الصديق ، ثم ثبت المصحف في خلافة عثمان ، وكتبت

ست نسخ من مصحفه وزعت على الامصار فكانت المرجع الاساس لحفظ النص واستنساخه ، وهو بالصورة التي يقرؤها المسلمون الى ما شاء الله .

وقد شجع الخلفاء الاولون الناس على قراءة القرآن وتدارسه ، واهتم الخليفة عمر بن الخطاب بالقراء ، وولاهم ابو موسى الاشعري عندما كان على امارة البصرة عناية ورعاية ، فازدادت مكانتهم الفكرية وقوتهم السياسية وكان لهم دور في كثير من الاحداث في صدر الاسلام (انظر كتابي التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في في البصره ص ٥٦ — ٥٨) ويدل هذا على الدور الكبير الذي قام به القراء في دراسة القرآن وفى نشاط الحركة الفكرية في هذا الدور المبكر .

غير ان الحركة الفكرية بين القراء كانت قائمة على السماع والحفظ ، ولم تشجعهم الدولة على كتابة ارائهم وتدوينها ، وحرصت على ان تقتصر الكتابة على القرآن الكريم ؛ وقد اورد الخطيب نصوصاً كثيرة عن كراهة عدد غير قليل من الصحابة كتابة غير القرآن ، واستخلص من ذلك « ان كراهة من كره الكتاب من الصدر الاول انما هي لئلا يضاهى بكتاب الله غيره ، أو يشغل القرآن بسواه ، لقلة الفقهاء في ذلك الوقت وللميزين بين الوحي وغيره ، لان اكثر الاعراب لم يكونوا فقهوا في الدين ، ولاجالسوا العلماء العارفين فلم يؤمن ان يلحقوا مايجدون من الصحف بالقرآن ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن » (تقييد العلم ٥٧) ؛ ويتبين من ذلك ان الصحابة الاولين ارادوا ان يكون القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد المدون ، وان كل الدراسات عنه ، وعن غيره ، ينبغي ان تقوم على المشافهة والسماع ، وسبب ذلك في رأي الخطيب صيانة القرآن ، وعدم افساح المجال لاحتمال ان يدخله ما ليس فيه .

غير ان عوامل اخرى دفعت الى عدم تشجيع كتابة الكتب ، في ذلك العهد المبكر من تاريخ الاسلام ، ومن هذه العوامل منع الخطر المحتمل من اهتمام الناس بهذه الكتب وتعلقهم فيها وانصرافهم اليها ، مما قد يؤدي الى ان تكتسب هذه الكتب اهمية كبيرة فتشغل الناس عن القرآن الكريم ودراسته ؛ ومن المعلوم ان القرآن الكريم فيه كثير من التعابير والافكار التي يصعب على العامة فهمها بدقة وسهولة ، كما ان اسلوب تنظيمه خاص يتطلب فهمه دراية خاصة ، هذا فضلاً عن انه كتاب منزل غرضه الاساسي

وضع المبادئ العامة لتوجيه حياة الامة وافكارها . وان هذه الخصائص هي التي قادت الى ظهور علم التفسير والتأويل في وقت مبكر جداً ، نظراً لشدة الحاجة اليه ، كما ادى الى ان تنمو علوم كثيرة اخرى تتصل بالقرآن وضبط كتابته وفهم محتواه .

والكتب التي يؤلفها البشر ، بمافيهم العلماء ، قد تتحاشى الصعوبات التي في قراءة القرآن الكريم ، فتكون اقرب الى فهم الجماهير وميولهم ورغباتهم ، فيزداد انتشارها بين الناس ، وتعظم مكانتها عندهم ، وتأثيرها عليهم ، مما قد يؤدى الى ان تصبح هذه الكتب مصدراً لفهم الاسلام دون القرآن . وقد اشارت المصادر الى مخاوف عدد من الاولين من مثل هذه الاخطار ، فيروي ابو هريرة ان الرسول (ص) قال : ما اضل الامم من قبلكم الا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله (تقييد العلم ٣٣ ـ ٣٤ ، مسند ابن حنبل ١٢/٢ــ١٣) . ويروي الزهري عن عروة ان عمر بن الخطاب اراد ان يكتب السنن ثم تردد ثم قال « كنت اردت ان اكتب السنن ، واني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، واني والله لا البس كتاب الله بشيء ابداً » (تقييد العلم ٤٨ ـ ٥٢ وانظر ايضاً : الطبقات الكبير لابن سعد ٣ــ ١ / ٢٠٦ ، ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ٦٤/١ ؛ كنز العمال ٢٣٩/٥) .

ويروى عن ابن مسعود انه قال « فانما اهلك اهل الكتابين قبلكم انهم اقبلوا على كتب علمائهم واساقفتهم وتركوا كتاب ربهم ، او قال : تركوا التوراة والانجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من الفرائض والاحكام » (تقييد العلم ٥٦ ، وانظر ايضاً ص ٥٣)

ويروى عن ابى موسى الاشعري انه قال « ان بني اسرائيل كتبوا كتاباً واتبعوه وتركوا التوراة » (تقييد العلم ٥٦ وانظر ايضاً : سنن الدرامى ١٢٤/١) .

ويقول محمد بن سيرين « انما ضلوا بكتب ورثوها » (تقييد العلم ٦١) .

ويروى عن اسماعيل انه قال » انما كرهوا الكتاب لان من كان قبلكم اتخذوا الكتب فاعجبوا بها ، فكانوا يكرهون ان يشتغلوا بها عن القرآن » (تقييد العلم ٦١) .

ومما يزيد في خطر ذلك ان معظم الناس ، وخاصة اهل الجزيرة وسكان الامصار كانوا حديثي عهد بالاسلام ، فلم يكونوا قد تفهموه وتشبعوا بروحه وافكاره بعد ، الامر

الذي قد يؤدي الى ظهور كتب لا يطابق ما فيها احكام القرآن ومبادئ الاسلام ، وهذا بدوره قد يجعل القيادة الفكرية والتوجيه بيد اناس لما يتشبعوا بروح الاسلام ، وقد يكونون ممن طغت عليهم روح البداوة او الثقافات الاعجمية ، فيفقد الخلفاء واهل المدينة ، وهم ركيزة الاسلام ، السيطرة والتوجيه . والى هذا اشار الخطيب بقوله الذي ذكرناه قبلاً « ونهى عن كتب العلم في صدر الاسلام وجدته ، لقلة الفقهاء في ذلك الوقت وللميزين بين الوحي وغيره ، لان اكثر الاعراب لم يكونوا فقهوا في الدين ولا جالسوا العلماء العارفين .. » (تقييد العلم ٥٧) ؛ وقال ايضاً « نهى عن الكتب القديمة ان تتخذ لانه لا يعرف حقها من باطلها ، وصحيحها من فاسدها ، مع ان القرآن كفى منها ، وصار مهيمناً عليها » (تقييد العلم ٥٧) .

ثم ان ازدياد الكتب التي يؤلفها الناس ، واكتسابها شعبية وتاثيرا على الجماهير قد يؤدى الى تعاظم التيارات المتعارضة ، والى انقسام الناس وتفككهم ،ومما يزيد في خطر هذا الانقسام هو استمراره حتى بعد وفاة مؤلف الكتاب ، لان الكتاب قد يبقى طويلاً ، وقد تنقل نسخه الى مناطق بعيدة ، فيتسع اثره عبر الزمن والمكان ، وبذلك يوسع خطر الانشقاق . ولعل هذا الامر هو وراء ما روى عن عمرو بن ميمون الأودى قوله « ان رجلاً جاء بكتاب دانيال فكادوا يقتتلون (تقييد العلم وانظر ايضاً ذم الكلام للهروى ٦٧)

عنى العلماء المهتمون في الحديث بدراسة تطور التدوين ،وذكروا نصوصاً كثيرة فيها ، وضم كتاب « جامع بيان العلم وفضله »لابن عبدالبر ، وكتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادي كثيراً من هذه النصوص؛ ويمتاز كتاب الخطيب بكثرة نصوصه وتنظيمها ، وبالتعليقات القيمة التي دونها المؤلف مما استنبطه من النصوص .

ويتبين من هذه النصوص ان كثيراً من الصحابة والتابعين الاولين كرهو االكتابة ، وقد ذكر الخطيب منهم ابا موسى الاشعري ، وابن عباس ، وزيد بن ثابت، وأبا هريرة ، وعبدالله بن مسعود ، وابا العالية الرياحي ، وأبا سعيد الخدري ، وأبا ادريس الخولاني ، والقاسم بن محمد ، والمغيره ، ومنصوراً ، والاعمش ، والضحاك ، والليث ،

وابراهيم (تقييد العلم ٣١ ـ ٤٨ ، وانظر ايضاً عن موقف ابى سعيد الخدري: ابن حنبل ٣٩/٣ ، جامع بيان العلم وفضله ٦٣/١ ، وعن موقف ابى هريرة : ابن حنبل ١٢/٢ ؛ وعن موقف زيد بن ثابت: جامع بيان العلم وفضله ٦٣/١) . ولعل من المفيد ان نذكر ان ابن عون قال « فكان محمد والقاسم واصحابنا لا يكتبون» (تقييد العلم ٤٧).

ترجع كثرة النصوص المتعلقة بالحديث الى الاهتمام الخاص الذي اولاه اهل الحديث قضية الكتابة ، ولا ريب في ان هذا الموقف لم يقتصر عليهم وحدهم ، وانما امتد الى ميادين المعرفة الاخرى ؛ وخاصة ما يتصل بالدين والحياة العامة . وقد اورد الخطيب نصاً يظهر ان الكراهية كانت لا تقتصر على كتب الحديث بل تمتد الى كتب الجدل والعقائد التي قد يؤدي نشرها الى البلبلة والاضطراب ، وهي لا تعنى باية حال موقفاً معادياً للكتابة ؛ اذ من المعروف ان الرسول(ص) كان يحث على تعلم القراءة والكتابة ، وانه كان له كتاب يكتبون له الوحي والرسائل والعهود ، وان الكتابة كانت ضرورة لازمة لسير دواوين الدولة وحفظ سجلاتها ، وان العرب كانوا يعتبرون من شروط الكمال للرجل ان يعرف الكتابة .

كما ان كراهية الكتب لا يصح ان تتخذ دليلاً على موقف معاد للحركة الفكرية ، ذلك ان الاسلام كما ذكرنا دين يقوم على عقيدة تتطلب تفهماً عقلياً وادراكاً فكرياً ، بقدر ما تتطلب سلوكاً معيناً ، وان كثرة تردد العلم وما يتصل به في القرآن الكريم انما هو دليل واضح على مدى اهتمام الاسلام بالعلم والحث على الاستزادة منه ونشره ، ولعل من اجلى ثماره واوضح مظاهره هو العدد الكبير من المسلمين الذين اشتغلوا في مختلف ميادين العلم والمعرفة ؛ وهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك لولا حث الاسلام على ذلك.

ان كراهية الكتب تعبر عن ان اسلوب الدراسة كان في اوائل الاسلام لا يعتمد على الكتب وانما يعتمد على المحاضرات والابحاث الشفهية وعلى السماع دون القراءة .

والواقع ان الرسول اعتمد في توضيح معالم الدين ونشر الاسلام ، وكان النجاح العظيم الذي حققه في نشر الدعوة دليلاً على الفوائد الكبيرة التي يمكن ان تجنى من الاعتماد في نقل العلم وتدارسه على المشافهة والسماع .

فاتباع اسلوب السماع والمشافهة والاعتماد على الحفظ هو سير على سنة الرسول واساليبه ؛ ويروى ان ابا سعيد الخدري قال لمن اراد ان يستكتب الحديث « لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحف ؛ كان رسول الله (ص) يحدثنا فنحفظ ، فاحفظوا عنا كما حفظنا عن نبيكم »(تقييد العلم ٣٦) ، وعندما قال له ابو نضره « اكتبني احاديث » اجابه « اتتخذونه قرآناً : اسمعوا كما نسمع » (تقييد العلم ٣٨) .

والمشافهة والسماع في دراسة العلم تتيح المجال للاستطراد والانطلاق والتوسع ؛ وقد عبر عن هذا ابو سعيد الخدري بقوله « تحدثوا فان الحديث يذكر بعضه بعضاً » (المحدث الفاصل للرامهرمزى ٥٤٥ — ٧ ،تقييد العلم ٣٧) ؛ واسلوب المشافهة سلس واضح عادة ، فهو اقرب الى فهم الجماهير والعامة من الكتب المعقدة .

والحفظ يقوم على نشاط الانسان وفعالياته ، فهو لا يتم بدون الانسان ، ولا يحدث الا على اساس الرغبات الذاتية ، فهو يربط بين العلم والانسان ، ويجعل بقاء العلم حياً نامياً معتمداً على الانسان ومدى حماسه في التعلم وحرصه على الاستزادة منه ؛ اما الكتب فهي تجعل العلم بمتناول الذين يستطيعون « مالياً »الحصول عليها ، اي الذين يمتلكون المال اللازم لاقتنائها بصرف النظر عن حرصهم على التعلم . وهكذا يصبح المال اساس الحصول على اداة العلم ؛ ويصبح العلم متوفراً لمن له مال وقد لا يكون له حرص ذاتي على العلم ؛ وقد عبر الاوزاعي عن ذلك بقوله « كان هذا العلم شريفاً اذ كانوا يتلقونه ويتذاكرونه بينهم .. فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار الى غير أهله »(تقييد العلم ٦٤ ،جامع بيان العلم ٦٨/١ ،سنن الدارمى١ /١٢ مقدمةابن الصلاح ١٧١) .

والاعتماد على الروايات الشفهية والسماع تزيد من قيمة العلماء وترفع من مكانتهم وتجعلهم مقصد الراغبين في العلم ؛ اما اذا كان الاعتماد في الحصول على العلم على الكتب ، فان الناس يصبح همهم جمع الكتب وتقديرها ، وقد يندفعون في ذلك فيتناسون المؤلف رغم ان هذا هو صاحب الفضل في تأليف الكتاب .

والتأكيد على الكتب قد يؤدي الى اعتماد المرء على الكتاب والحصول عليه دون دراسته

وتفهم معلوماته ، مما قد يؤدي الى ان يشعر بعدم ضرورة دراسته ما دام الكتاب في ملكه وبمتناول يده ؛ وهذا بدوره يؤدي الى ان يصبح المرء جمّاعة للكتب وليس عالماً ، فلا يتقن العلم ولا يتشرب روح العلماء . وقد اشار الرامهرمزي الى خطر تدوين العلم في الكتب ثم اهماله ، فقال « ولا خير في علم يودع الكتب ثم يهمل » ؛ ونقل الرامهرمزي في ذلك عدة ابيات شعرية منها قول احدهم :

لا خير في علم وعي القمطر ما العلم الا ما وعاه الصدر

وقال الاعمش :

تستودع العلم قرطاساً تضيعه وبئس مستودع العلم القراطيس

وانشد ابراهيم بن حميد :

اذا ما غدت طلابة العلم مالها من العلم الا ما يدون في الكتب

غدوت بتشمير وجد عليهم فمحبرتي اذني ودفترها قلبي

وقال ابن بشير الازدي

أأشهد بالجهل في مجلس وعلمي في الكتب مستودع

اذا لم تكن عالماً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع

(المحدث الفاصل ٣٨٧ – ٨)

والعلم المعتمد على المشافهة والحفظ والسماع يجنب العالم مشاكل الكتابة العربية وصعوبة ضبطها ، خاصة وان كثيراً من الحروف العربية متشابهة ، ولا تتميز الا بالنقط (ب ، ت ، ث)اوبمقدار الالتواء (ر د) فضلاً عن انها لاتدون عادة الحركات القصيرة ،

ويبدو ان الخط الكوفي كان شائع الاستعمال في العهود الاولى ؛ وهو خط تبرز فيه الزوايا الحادة ، فتجعل الكتابة فيه غير يسيرة نسبياً . ويقول القلقشندي : «ذكر صاحب اعانة المنشيء ان اول ما نقل الخط العربي من الكوفي الى ابتداء هذه الاقلام المستعملة الآن في اواخر خلافة بني امية واوائل خلافة بني العباس . قلت : على ان الكثير من كتاب زماننا يزعمون ان ابا علي بن مقلة هو اول من ابتدع ذلك ، وهو غلط ، فانا نجد من الكتب بخط الاولين فيما قبل المائتين ما ليس على صورة الكوفي ، بل يتغير عنه

الى نحو هذه الاوضاع المستقرة ، وان كان هو الى الكوفى أميل لقربه من نقله عنه » (صبح الاعشى ١١/٣)

واقدم كتاب وصلنا هو « الرسالة » للشافعي بخط الربيع ، وهي مكتوبة في سنة ٢٦٥ وخطها يشبه خط برديات كتبت في زمن يقارب ذلك التاريخ (انظر المقدمة التي كتبها احمدمحمدشاكر لكتاب«الرسالة»للشافعي ،وانظرراي مورتز في دائرة المعارف الاسلامية ٣٩١/١) ؛ ثم كتاب المسائل لاحمد بن حنبل ، وقد كتب في سنة ٢٦٦ ، وهو محفوظ في المكتبة الظاهرية (٣٢٤ حديث) .

ان التدوين يقيد العلم ويحصره ويضيقه ، لان الكاتب يشعر ان كتابته ستكون مستمسكاً مادياً وحجة عليه ، يحاسب بموجبها على اقواله ؛ مما يدفعه الى الحذر والتردد من اجل تدقيق الكلمات التي يستعملها ، والافكار التي يعرضها ،والمعلومات التي يدونها ؛ فاذا ظهرت له بعد ذلك اخطاء ، فانها تكون وصمة عليه . وكثيراً ما يكتشف المؤلف بعد تأليفه كتاباً خطأ بعض ارائه او عدم دقتها ، فلا يستطيع جمع نسخ المكتوب ، مما قد يحدث له ازمة نفسية ، او يدعوه الى اعادة كتابة كتابه بشكل جديد ؛ وفي التاريخ امثلة كثيرة على كتب اعيدت كتابتها مع تعديلات اساسية ، لعل اشهرها مقدمة ابن خلدون حيث وصلتنا اكثر من صورة لها مدونة بخط مؤلفها ؛ ومن الامثلة عليها مروج الذهب للمسعودي الذي اشار فيه مؤلفه الى انه اعاد كتابته وطلب عدم استعمال النسخة القديمة .

واعتماد دراسة العلم ونقله على المشافهة والحفظ والسماع يؤدي الى حصر الحركة الفكرية في اماكن اقامة العلماء ، وبالتالي الى تنمية الاقليمية ؛ اذ ان كثيراً من العلماء ، وخاصة المتقدمين في السن منهم ، كانوا لا يميلون الى السفر لمافيه من عناء ، فتحدد اثرهم في مدنهم ، الا لمن كان يرحل اليهم . والواقع ان العلم ازدهر في العهود الاولى في اماكن محدودة هي البصرة والكوفة والمدينة بالدرجة الاولى ، ثم في بغداد بعد انشائها (وسنبحث عن اسباب واثار ذلك في مقال تال) ؛ وادى هذا الى ان تؤثر العوامل المحلية في توجيه الحركة الفكرية في كل مركز ، فيزداد الاهتمام بعلم دون آخر ، او باتجاه تفكير خاص في مكان معين دون آخر ؛ وقد عرفت البصرة بالزهد والاعتزال (حلية

الاولياء ٩٤/٢) وعرف عن البصريين اهتمامهم باللغة « فان علم العربية عنهم اخذ » (الفهرست ٩٦) و « قال ابو سعيد لا اعلم احداً من علماء البصريين في النحو واللغة اخذ عن اهل الكوفة شيئاً من علم العرب الا ابا زيد (الانصاري) فانه روى عن المفضل الضبيّ (الفهرست ٨١) . وكان مذهب البصريين امتناعهم عن الكتابة وكراهتهم لها» (تقييد العلم ٧٩ وانظر ايضاً ص ١١١) ، اما اهل الكوفة فكانوا « اعلم بالاشعار من اهل البصرة » (الخصائص ١٩٢/١ لسان العرب ١٤٠/٣) . غير ان هذه الاقليمية اضعف اثرها رحلات العلماء وتتبعهم للنشاط الفكري العام ، مما ساعد على ظهور هيكل عام موحد في كل علم ، واصبحت « الاقليميات » فروعاً ثانوية فيه .

ان اعتماد العلم على المشافهة والسماع والحفظ يمكن السلطة من مراقبة العلماء ورصدهم وحصر نشاطهم اما الكتب فيسهل اخفاؤها ونقلها الى مناطق بعيده واخفاء استعمالها بين الناس .

والاعتماد على المشافهة والسماع يؤدي الى قصر الحفظ على جمل قصيرة واحكام عامة خالية من الشروح والتوضيحات ؛ فهي لا تخلد الا « قمماً » واحكاماً عامة ، مهما كانت دقتها وروعتها ، فهي لا تمثل كافة معلومات وا راء واساليب تفكير العالم الذي نقلت عنه هذه الجمل .

والحق ان كثيراً من العلماء والمفكرين لم ترو لنا عنهم الا جمل او نبذ قصيرة ، ولا يعقل ان تكون هذه المرويات شاملة لكل معلوماتهم او لكل ما قالوه ؛ علماً بان بعض هؤلاء العلماء كانوا رؤوساً في العلم او في الفرق الكلامية ، ولهم اتباع يسيرون على توجيهاتهم أو هديهم ، وان الاقتصار على هذه المرويات القليلة في تقييم افكار اولئك العلماء او في تقدير مدى انتشار الحركة الفكرية ، لا يمكن ان يقدم صورة دقيقة وصحيحة وكاملة عنهم .

ونقل العلم بالمشافهة والحفظ يفسح المجال للحرية والتبسط ،ويؤدي الى التبديل والتحوير ، عمداً أو عفواً ، فناقل الخبر مهما توخى الدقة فانه يدخل تبديلات يختلف مقدارها في المفردات اللغوية ، فيستعمل المفردات المألوفة لديه محل المفردات التي قد يراها غريبة عليه ، وقد يبدل اسلوب المروى ليتناسب مع اسلوب الكلام الذي يتميز

عادة بالسلاسة والوضوح ؛ ولعل اوضح ما يتجلى هذا في الاشعار والقصائد التي لا يكاد يخلو بيت فيها من اختلافات ناجمة من تصرف الرواة في رواية تلك الاشعار .

ثم ان الروايات الشفهية والنقل عن السماع كثيراً ما تتعمد الاختصار ، فيحذف الراوي ما يصعب حفظه لطوله او تعقد اسلوبه او غرابة مفرداته ، او لانه يرى معلوماته مناقضة لمعاييره الخلقية او الدينية او الفكرية او السياسية او الاجتماعية ؛ وقد يبرز منها ما ينسجم مع معاييره ؛ او قد يضيف من عنده شروحاً وتفصيلات ، ويصوغها بشكل يصعب تمييزه عن المروى ، فتختلط اراء الراوي مع اراء من روى عنه .

ولا ريب في ان كل هذه الظواهر كان لها اثر في توجيه الحركة الفكرية ، ولكنها كانت مصدر خطر على عدم الحفاظ على التراث على حقيقته ، الامر الذي قد يولد اخطاراً فكرية ، واثاراً سيئة خاصة فيما يتعلق بالدين ؛ وقد ادرك العلماء هذه الاخطار فعملوا على تلافيها ، ومن اهم الوسائل التي ابتدعوها هي الاهتمام بالاسناد .

الاسناد واهميته

ان الاعتماد على السماع دون الكتب، وعدم وجود قيد يحصر الناس المشتغلين فيه ادى الى انتشاره بين عدد كبير جداً من الناس الذين يتباينون في فهمهم وحفظهم وخلقهم . وقد اتاح هذا التوسع والانتشار المجال الى عدم ضبط حرفية النصوص والى الاختلاق . حتى في الحديث النبوي

فاما عدم ضبط حرفية النصوص فقد كان من مظهرها ان ينقل الحديث النبوي بالمعنى.

واما الاختلاق فقد كان مبعثه اهتمام الناس بالسنة وتعظيمهم لها واعتبارها الانموذج الامثل الذي ينبغي السير عليه اذا اراد المرء الفلاح في الدنيا والاخرى. وقد دفعت هذه المكانة الرفيعة للسنة عدداً من الناس الى اختلاق اقوال واعمال ينسبونها للرسول فيها تمجيد لما يحبونه وذم لما يكرهون . وقد تعددت مواضيع الاختلاق بتعدد اهتمامات الناس واتجاهاتهم فكان منها ما يتعلق بالمثل الاخلاقية او بالحياة المادية بما في ذلك الملبس والمأكل او التصرف الشخصي في الحياة اليومية ، ومنها ما يتعلق بتمجيد الاماكن والبلدان او الاشخاص، ومنها ما يتعلق بالتشريعات وقوانين الاحوال الشخصية او المدنية او التجارية

او المعاملات ،ومنها ما يتعلق بالاراء الفلسفية او المذهبية او السياسية . ولما كانت السياسة مرتبطة بالدين وممتزجة به فقد كان تأثيرها اوسع في خلق الاضطرابات والقلق والثورات في المجتمع ،لذلك كان الاختلاق فيها اشد اثارة ،اذ ان الحديث المختلق لمصلحة اي حزب او فريق يثير كافة الفرق الاخرى (انظر في دوافع الوضع والاختلاق في الحديث « بحوث في تاريخ السنة المشرفة » للدكتور اكرم العمري ١٦ – ٤٢)ان ازدياد مكانة السنة وتوسع مادتها لتشمل مختلف جوانب نشاط الفرد والمجتمع وتزايد الاختلاق المتعمد للافساد كان من اهم الدوافع لمحاولة ايجاد وسيلة لمنع الاختلاق ولتمييز الحديث الصحيح عن المختلق .

ولما كانت المعرفة في هذه الفترة تنقل سماعا ، لذلك فمن وسائل التحقق من صدق المروى هو التثبت من الاتصال الشخصي بين المحدث ومصدر حديثه . ولا ريب في ان هذه الوسيلة سليمة واولية ، فان كذب الشخص في ادعائه الاتصال بمحدثه ، وهو امر مادي واضح يكون دليلاً على تخلقه بالكذب وعلى احتمال اختلاقه في الامور الاخرى . ومما يزيد في اهمية هذا المعيار هو ان معظم الصحابة واولادهم الذين كانوا يعرفون سنة الرسول (ص) وسمعوا احاديثه كانوا يقيمون في المدينة في الوقت الذي تزايد الاهتمام بالحديث في الامصار الاسلامية الاخرى . فرواية اهل الامصار الاحاديث النبوية تكون معرضة للشك اذا لم يتصل الراوي بمصدره شخصيا ، وقد عبر عن ذلك عبدالله بن المبارك في قوله « الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء » (معرفة علوم الحديث للرازي ص ٦) ويفترض في هذا الاتصال ان يكون كل من المصدر والراوي ثقة اي عالماً دقيقاً واميناً ،والا انتفت اهمية الاسناد.وقد اهتم العلماء المسلمون بالتثبت من الصلة بين المصدر والراوي وهذا ما يسمى » الاسناد » اي ان يذكر الراوي الاشخاص الذين سمع منهم الحديث .

تنقل كثير من الكتب قولا لمحمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ) عن زمن وسبب ظهور الاسناد . فقد قال « لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ،فينظر الى اهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر الى اهل البدع فلايؤخذ حديثهم »

(مسلم : الصحيح ١/١٥ ابن عدي: الكامل ١/٣٩ آ ، ابن حبان : المجروحين من المحدثين ٢/٢٧ ب – ٢٨ ب الرامهرمزي : المحدث الفاصل ٢٠٩ الخطيب: الكفاية ٢٢ ابن حجر: لسان الميزان ١/٧) .

لقد حدد ابن سيرين سبب الاهتمام بحادثة معينة معروفة في زمنها وهي « الفتنة » غير أن لا ابن سيرين ولا الكتب التي ذكرت هذا النص اوضحت هذه الفتنة التي لا بد وانها كانت واسعة الاثر بحيث امتدت الى الحركة الفكرية والزمت المشتغلين فيها على تطبيق اسلوب خاص معين لم يكن تطبيقه مشترطاً قبل تلك الفترة.ويتضح من كلام ابن سيرين ان هذه الفتنة قد رافقها ظهور اهل البدع بقوة ، بحيث اصبحت في العالم الاسلامي كتلتان : احداهما اهل السنة والاخرى اهل البدع ، وان هذه الفتنة تمس في طبيعتها او في اثرها ظهور تيارات عقائدية تقر بالمكانة الفائقة للسنة ولكنها تعمل على اخضاعها للبدع الجديدة التي تناقض ما يعرفه اهل الحديث عنها .

لقد ظهرت في القرن الاول الهجري الذي عاش فيه ابن سيرين (تـ ١١٠ هـ) عدة فرق اسلامية في اوقات متفاوتة ، كما حدثت اضطرابات سياسية غير قليلة سمت المصادر التاريخية كلا منها فتنة واولها الاحداث التي ادت الى مقتل الخليفة عثمان ، كما وصف مالك بن انس حركة عبدالله بن الزبير (٦٤–٧٢ هـ) بانها فتنة (الموطا . كتاب الحج٩٩)وذكر ابن سعد فتنة ابن الاشعث (٧ – ١ / ١١٩) واطلقت الفتنةعلى الاحداث التي رافقت مقتل الوليد بن يزيد (١٢٨ هـ) وقد اعتبر شاخت الفتنة الاخيرة هي التي سببت ظهور الاسناد (اصول الفقه الاسلامي ٣٦ – ٣٧) وهذا يناقض نسبة القول لابن سيرين الذي توفى سنة ١١٠ هـ ، ويرى اكرم العمري انها مقتل عثمان (ابحاث فيتاريخ السنةالمشرفة ص ٤٤ فما بعد)غير ان هذا التاريخمبكرجداً لم تظهر فيه الا فرق قليلة ضعيفة الاثر .

ويلاحظ ان الحوادث التي مرت بالعالم الاسلامي وخاصة في العراق بين موت يزيدبنمعاوية وتوليةالحجاج العراق كانت من ادق الفترات،فقد ظهرت فيها اضطرابات سياسية وبرزت عدة فرق عقائدية تصارعت بعنف فيما بينها ، فلا بد ان تكون الفتنة

هي في مجموع هذا الاحداث او حدث واحد منها كان يقدر ابن سيرين انه اخطرها والتي لم تحددها المصادر .

نقل ابن ابي حاتم ان مالكاً قال اول من اسند الحديث الزهري (تقدمة المعرفة ٢٠) وقد نقل عن الوليد بن مسلم ان الزهري قال : يا اهل الشام مالي ارى احاديثكم ليس لها ازمة ولا خطم ، وتماسك اصحابنا بالاسانيد من يومئذ (مصطفى السباعي السنة ومكانتها في التشريع ٢٩٣) .

غير ان روايات اخرى تذكر ان الاسناد بدأ بالعراق، وقد نسب الرامهرمزى نشأته الى الشعبي حيث يروي ان الربيع بن خيثم قرأ عليه حديثاً قال الشعبي فقلت من حدثك؟قال عمرو بن ميمون،وقلت من حدثك،فقال ايوب صاحب رسول الله(ص).قال يحيى بن سعيد وهذا اول ما فتش عن الاسناد (المحدث الفاصل ٢٠٨) ويذكر ابن سعد « وحدثنا انس فاخبر بالاسناد » (ابن سعد ٧-٢/٢) والراجح ان الاهتمام بالاسناد بدأ بالعراق حيث ظهر كثير من الفرق كما ظهر فيه عدد كبير من علماء الحديث.

لقدبدأ الاسناد ونما في دراسة الحديث النبوي والسنة،وكان الهدف منه التوصل الى حقيقة اقوال الرسول وافعاله ، فهو يقوم على فكرة تمجيد الماضي وضمان ضبط معرفته فهو يعبر عن روح المحافظة وتقديرها ، ويفترض ضمنياً وجوب ابقاء الماضي حيا فلا ينسى او يندثر . وتقدير الماضي ينسجم مع النفسية العربية منذ الازمنة القديمة،وقد اشار القرآن الكريم الى تمسك العرب بسنة ابائهم الاولين وانهم يقتدون اثار ابائهم،فلما جاء الاسلام ازال المثل العليا البدوية القديمة واحل محلها مثلاً اسلامية جديدة اعتنقها العرب وظلوا يتمسكون بها ، وهذه المحافظة التي يعبر عنها الاسناد ويقويها تفيد عندما تكون معتدلة في استقرار المجتمع واستمراريته وحفظ المجتمع متماسكاً .

وترجع اهمية الاسناد الى المكانة الكبيرة المتميزة التي تشغلها سنة الرسول في الحياة الفكرية والاخلاقية والعملية ، والى ان الصحابة هم الذين عاشوا فيها ولمسوها وتفهموها ، فهم المصدر الاول الوحيد عنها ،وهم جميعاً عاشوا في المدينة فالاسناد في الحديث يثبت لأهل المدينة ونظمها مكانة متميزة في الدولة الاسلامية،ويجعلهم المثل العليا والمرجع الاكبر في الحياة الاجتماعية والفكرية وقد ادرك الخلفاء الامويون والعباسيون الاولون المكانة التي

اكتسبها اهل المدينة فلم يحاولوا هدمها بل ابقوها رغم ان أهل المدينة كانوا يتخذون احيانا مواقف سياسية عدائية قد تصل الى حد شهر السلاح ضد الخلافة ، ويبدو ان الخلفاء ادركوا الفوائد التي تجني من وجود مركز محايد نسبياً ومتصل بمنبع الاسلام يكون مثلاً اعلى للمجتمع الاسلامي ، وان هذا من عوامل التوحيد الفكري والروحي للمجتمع الاسلامي ، فحرصوا عليه رغم موقف اهل المدينة ،وكان من مظاهر حرصهم اهتمامهم بعلماء المدينة وعدم اتخاذهم اية خطوة قد تعرقل نمو الاسناد .

والاسناد قائم على اساس ان الرسول والصحابة لم تكن لهم في البداية وثيقة مكتوبة معتمدة غير القرآن ، وان معرفة الاجيال التالية اقوالهم ونظم مجتمعهم لا تتم الا عن طريق السماع . والاسناد في الحديث يفترض الثقة المطلقة بالصحابة الاولين باعتبارهم مصدر معرفة الاسلام وبانهم لا يكذبون فيما يقولون ،وهذه فكرة يعبر عنها حديث ينسب الى الرسول (اصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم) غير انه على مر الايام انقرض الصحابة فيروى ان اخر المتوفين ممن شهد بدرا قد توفى في اوائل العصر الاموي . ولكن فكرة ان العلم تتوقف صحته على مدى الثقة بقائله او ناقله ظلت ثابتة ،فما دام الشخص عندهم موثقا ، فعلمه صحيح ، فالعلماء هم معيار الصحة ، والخبر الصحيح هو المنقول عن عالم موثق ، وهو يفترض ان الشرط الاساس هو الاتصال الشخصي بين الراوي والمحدث فهو يقوم على ضمان وسيلة امينة لمعرفة الماضي وان اساس المعرفة هو الاشخاص الذين عن طريقهم فقط تنتقل المعرفة ، اما ابناء الجيل الاول فمتساوون بالعدالة لانهم جيعا رأوا الرسول وعاشوا معه .

لقد انتشر العلم بين الناس واهتم به وبدراسته عدد كبير من الناس في مراكز متعددة فقد روى ان عدد طلاب الحديث في الكوفة قبيل الجماجم (٨٢ هـ) بلغ اربعة الاف (المحدث الفاضل ٥٦٠) ومن المعلوم ان العلم كان مفتوحا للجميع يستطيع كل من اراد ان يطلبه ،فلم يكن هناك ما يقيد حضور الطلبة او يحصر عددهم وبذلك صار عدد اهل العلم كبيرا لان حلقات العلماء مفتوحة ،والتقاليد السائدة ان لا يبخل الرجل في علمه ،لذلك كان من الممكن ان يسمع من الشيخ عدد كبير يختلفون في مستواهم وفهمهم ودقتهم وامانتهم .

غير ان التمسك بالاسناد القائم على اساس ان المعيار الاساسي لصحة العلم هو كفاية الراوي وامانته ادى الى ضرورة تقييد المعتمدين وحصرهم واختيار عدد منهم ، وقد حدث بالفعل ان اخذ التقدير ينحصر باشخاص معينين محدودي العدد، وصار رجال علم الحديث يعطون الافضلية لرواة معينين وابتدعوا ما سموه الاسناد العالي ويروى ان علي بن المديني وهو من اوائل علماء رجال الحديث واعظمهم قال: نظرت فاذا الاسناد يدور على ستة : لاهل المدينة ابن شهاب (ت ١٢٤) ولا هل مكة عمرو بن دينار (تـ ١٢٦) ولا هل البصرة قتادة بن دعامه السدوسي (تـ ١١٧) ويحيى بن ابي كثير (تـ ١٣٢) ولا هل الكوفة ابو اسحق السبيعي (تـ ١٢٧) وسليمان بن مهران الاعمش (تـ ١٤٨) ثم صار هولاء الستة الى اصحاب الاصناف: فممن صنف من اهل المدينة مالك بن انس ، ومن اهل البصرة سعيد بن ابي عروبة (تـ ١٥٨) وحماد بن سلمة (تـ ١٨٢) وابو عوانة (تـ ١٧٩) وشعبة بن الحجاج (تـ ١٦٠) ومعمر بن راشد (تـ ١٦٤) ، ومن اهل الكوفة سفيان بن سعيد الثوري (ت ١٦١) ، ومن اهل الشام عبد الرحمن ابن عمرو الاوزاعي (تـ ١٥١) ، ومن اهل واسط هشيم بن بشير (تـ ١٨٣) . ثم انتهى علم هولاء الستة وعلم الاثني عشر الى ستة نفر : الى يحيى بن سعيد القطان (تـ ١٩٨) ويحيى بن زكريا بن ابي زائدة (تـ ١٨٢) ووكيع بن الجراح (تـ ١٩٧) وعبدالله بن المبارك (تـ ١٨١) وعبدالرحمن بن مهدي الاسدي (تـ ١٨٨) ويحيى بن ادم (تـ ١٨٨) (العلل ٣٩ – ٤٣، المحدث الفاصل ٦١٤ – ٦١٩، تذكرة الحفاظ ١-٣٦٠ وانظر الخطيب ٤٠١/١٠ باختصار).

ويتضح من هذا ان التمسك بالاسناد قد رافقه حصر التقدير بعلماء محددين معينين اعتبروا موثقين، اما الباقون فقد رتبت لبعضهم درجات متباينة من التوثيق ، وهكذا اصبحت بجانب شعبية العلم وانفتاحه طبقية في العلماء يقررها علماء رجال الحديث تبعا للمقاييس التي يرونها ولطريقة تطبيقهم لها .

ادى الاهتمام بالاسناد الى نمو علم الرجال الذي يدرس اسماء الرواة من الرجال والنساء وسني ولادتهم ووفياتهم ، فذكرت كتب الرجال قائمة ضخمة منهم كما ذكرت

العدد الكبير الذي كان يحضر لسماع بعض العلماء البارزين الامر الذي يبين مدى اهتمام الناس بالعلم وكثرة المشتغلين بدراسته .

وذكرت هذه الكتب كنى المترجمين والقابهم ونسبهم الى العشائر او المدن او الحرف والى بعض الحوادث التاريخية والى ابرز شيوخ المترجمين والوظائف التي اشغلوها والى رحلاتهم ،مما يقدم مادة ثمينة عن الاصول الاجتماعية والقبلية والعرقية والحرفيةللعلماء وكذلك عن نشاط العلماء وسفراتهم واتصالاتهم ومراكزهم العلمية والاجتماعية والادارية وقد الف عدد من العلماء كتبا ركز كل منها على جانب من الجوانب المتعلقةبرجال الحديث او نظموها على اسس خاصة (انظر اكرم العمري بحوث في تاريخ السنة المشرفة) .

ولا بد من الاشارة الى انه رغم كثرة عدد من ذكرتهم كتب الرجال فانها لم تستوعب كل المشتغلين بعلم الحديث كما ان كثيراً ممن ذكرتهم لم ترو تفاصيل عن علمهم او نشاطهم العلمي غير ان مجرد ذكرهم يدل على انه كان لهم نشاط علمي ملحوظ لم تسجل اخباره .

وعلم الرجال يوضح المثل العليا الاخلاقية للعلماء المسلمين ،وهي مثل دقيقة شاملة ، وقد ساهمت دقته في تمكين هذه المثل العليا عند المسلمين باعتبارها الوسيلة الرئيسة لتقدير الناس لهم ولا حتلالهم مكانتهم في العالم . وقد اهتمت كتب الرجال بالعقائد باعتبارها من اهم الامور الواجب ملاحظتها لمعرفة امانة العالم،وبذلك كشفت عن كثير من العقائد ومدى انتشارها وتغلغلها وموقف الناس منها،وساهمت كتب الرجال في نمو بعض جوانب النقد التاريخي وفي وصوله مستوى عاليا من الرقي والدقة .

والاسناد وسيلة يدافع عنها الشخص عن صدقه بطريقة غير مباشرة وينفي عنه مسؤولية الكذب الذي هو من الصفات الذميمة التي انذر القرآن الكريم مقترفها بالخزى في الدنيا والنار في الاخرة ، كما ان الاوساط العلمية كرهته . ففي الاسناد يتخلص الراوي من مسؤولية الكذب ويلقي تبعيتها على غيره ان وجدت .

غير ان التأكيد على الاسناد كان سببا في ضياع كثير من الحقائق المهمة لمجرد انه لم يكن لها اسناد . والواقع ان عدداً من العلماء الاولين المعتمدين مثل مالك بن انس

والشافعي والاوزاعي وابي يوسف يوردون معلومات واخباراً دون المحافظة على دقة الاسناد وقد أوردوا هذه الحقائق دون ضبط الاسناد لانهـــم يعتقدون بصحتها واهميتـــها وقد الزمت المكانة الكبيرة لهؤلاء العلمـــاء الناس على دراستها ، ولكن لا بد ان كثيراً من الاخبار والمعلومات ضاعت لا لخطئها وانما لان رواتها لم يضبطوا سند رواياتهم ، والواقع ان بعض العلماء ادرك خطر التزمت في التمسك الحرفي بالاسانيد على العلم فحاول اباحته ولو الى حد محدود .

و الاسناد يؤدي الى تثبيت مكانة عدد محدود من العلمـــاء ويقوى مكانتهم ، فتضعف مكانة غيرهم ،وخاصة من المتاخرين الذين يصبح دورهم مجرد نقلة غير مبدعين ، وقد تولد فيهم عقدة النقص ، وبذلك تؤدي الى طبقية صلبة في العلم . كما ان التزمت في النقد لا بد انه ادى الى كثير من الضحايا من العلماء الذين جرحوا لاسباب واهية اولشكوك او لمجرد حادثة قاموا بهااوجانب ضعيف ضيق فيهم. وادى الاهتمام بالاسناد الى ان يصبح العمل الاكبر للعلماء هو ضبط مصدر النصوص وضبط حرفية النقل وتقوية ملكة الذاكرة دون اعطاء اهتمام مماثل للتعليل والتحليل او لمقارنة محتوى النصوص بالاحوال العامة ، مما يضعف ملكة التفكير . وهذه الدقة الزائدة ولدت شيئاً من ضعف الثقة والجمود عند العلماء،فصار كثير من العلماء مجرد نقلة ،وصارت شخصياتهم تكمن وراء اختيارهم او تنظيمهم لما ينقلون . كما ان الاهتمام بالسند ادى الى كثير من الانتحال لان الاسانيد اعتمدت على تقديس الرواة،فشجع ذلك على ان تنسب كثير من الاراء اليه لكي تروج ويقول الجاحظ انه كثيراً ما كان يؤلف الكتب وينحلها غيره لتروج .

وهكذا اضيف مصدر لتقوية مكانة بعض العلماء وطمس اخرين .

والحرص على الاسناد يؤدي احيانا الى تكرار ذكر نص واحد ، او تكرار كثير من رجال اسناده وذلك لاظهار السبل المتعددة التي وصلت الراوي ، ثم ان بعض الاسانيد تكرر ما تروي مع اختلافات ضئيلة في بعض الحروف او الكلمات ، وان تكرارها يؤدي الى الاملال دونما فائدة كبيرة . وقد ادرك الاولون من العلماء ، وخاصة المؤرخين خطر الاطالة المملة من تكرر المسانيد ، فكانوا يجمعون اسانيدهم احيانا ، فيذكرون

كلا منها ، ثم يذكرون اجمال ما رووا ، وقد يقتضيهم ذلك ادخال بعض التحويرات في التعابير والمفردات ، وادماج النصوص القصيرة بالطويلة ، ويكثر جمع الاسانيد عند عدد من المصادر القديمة مثل طبقات ابن سعد ، وسيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبري ، حيث يذكر في الخبر عدة اسانيد ثم يقول « كلهم قد حدث بعض الحديث عن كذا وقد اجتمع حديثهم كله فيما سقته من هذا الحديث عن كذا ، قالوا .. »

وكان بعض العلماء يحذف الاسانيد فلا يذكر ويكتفي بالقول « حدثني من اثق » « حدثني بعض شيوخنا » . (انظر كتاب الخراج لابي يوسف . فهرس الاسانيد ، وكذلك الموطأ لمالك) . وقد اسقط الصولي ذكر الاسانيد من كتابه (ادب الكاتب) ، وبرر ذلك بقوله « وقد اختصرت كتابي هذا جهدي غير تارك ما يحتاج اليه فيه ، ولكني اخرجت المعاني في اقواتها من الالفاظ واسقطت من اكثرها الاسانيد ليقرب على طالبه وينال بغير كلفة ما أراه تبعد انظاره عنه » (ادب الكاتب ٢١) .

وقد ادرك ابن قتيبة الصعوبات التي يواجهها القارئ في ايراد الاسناد والحرص على ابقاء الكلمات القديمة على ما هي ، فحذف بعض الاسناد وبدل بعض الكلمات واعترف بذلك فقال « ولم يجزلي ان انص بالاسناد الى من له اصل التفسير ، اذ كنت لم اقتصر على وحي القوم حتى كشفته ، وعلى ايمائهم حتى اوضحته ، وزدت في الالفاظ ونقصت ، وقدمت واخرت وضربت لبعض ذلك الامثال والاشكال حتى يستوى في فهمه السامعون (تأويل مشكل القرآن ص ١٨) .

وقد ادى الاهتمام بالسند وصرامة نقد الرجال الى تحرج بعض العلماء من دراسة الحديث والى الاهتمام بدراسة مواضيع اخرى من المعرفة ، وخاصة الادب والشعر فقد روى ان شعبة كان يهتم بالشعر ، فلما سأله اصحاب الحديث عن سبب اهمال رواية الحديث قال والله لانا في الشعر اسلم مني في الحديث ، وقال ايضاً ما انا مغتم على شيء اخاف ان يدخلني النار غيره ، يعني الحديث (ابن سعد ٧ - ٢/٣٨) وكان الاصمعي يتحرج من تفسير شيء ورد في القرآن الكريم أوالحديث ولذلك لم يرفع من الحديث الا احاديث يسيرة (مراتب النحويين لابي الطيب اللغوي ورقة ٤٨) .

الاسناد في العلوم الاخرى

لم يقتصر استعمال الاسناد على الحديث النبوي ، بل امتد الى عدد من ميادين المعرفة الاخرى . غير ان الهدف منه فيها يختلف عما في الحديث ، اذ ان الغرض من تطبيقه في الحديث هو ضمان التحقق من تسلسل وصول المعلومات من الرسول،فالنهاية العليا في سند الحديث هو الرسول (ص) ، وقيمة الاسناد تتوقف على استمرار السلسلة والثقة بكل حلقة منها ، اما المواضيع الاخرى ، فان نفس العوامل التي ادت الى اهتمام الاسناد في الحديث ، قادت الى تطبيقه في تلك المواضيع ، وخاصة التي اعتمدت دراستها على الروايات السماعية ، غير ان النهاية العليا للسند في هذه العلوم هو العلماء البارزون في الموضوع المعين،فغايته اظهار اهمية هؤلاء العلماء.ومن الطبيعي ان الصحابة كانوا المعتمد الموثق في استقاء المعرفة المتعلقة بالرسول والاسلام وخاصة فيما يتصل بالحديث والفقه والتفسير . اما في المعارف الاخرى فان سلاسل الوثائق كانت تنتهي بالعلماء الموثقين من حيث دقتهم وسمعة اطلاعهم وامانتهم وفهمهم في تلك العلوم .

وقد ظهر معظم العلماء الموثقين منذ القرن الثاني الهجري ، ويدل ظهورهم على ازدياد التخصص في العلوم ، والى ادراك الناس ضرورة تطبيق معايير معينة لتمييز المشتغلين بكل علم ، والى تقرير العلماء الموثقين في كل موضوع . ومن المعروف ان العرب كان لهم في الصحراء شعر متميز وثقافة انسانية عامة تعبر عنها لغة وصلت مستوى عاليا من التقدم ، ثم جاء الاسلام فاثار التفكير في ميادين انسانية واسعة ، وبذلك رفع من مستوى ونطاق الثقافة والتفكير ، غير ان تزايد المعرفة والتساولات اتاحت المجال لاظهار وتنمية القابليات والميول ، فبدأت تتوضح اتجاهات علمية هي نواة التخصص العلمي ، رغم العلاقات الوثيقة والتداخلات بين العلوم ، وهكذا بدأت الاشارات الى التفسير كعلم مستقل ، رغم علاقته بالحديث واللغة والشعر والتاريخ ، وكذلك الى الفتيا ، وهي نواة الفقه ، رغم صلتها الوثقى بالقرآن والحديث .

ان أزدياد المعرفة وتقدم العلم وكثرة المشتغلين فيه لا بد ان يؤدي الى ان يحدث بين المشتغلين فيه تمايز يستند الى معايير يقررها المجتمع والعاملون في الميادين العلمية، نظراً لان العلم والمعرفة في الاسلام لم يسر طبقا لقواعد ونظم ترسمها وتنفذها السلطات ،

بل كان « شعبياً » في تكوينه ونموه ، فلم تستخدم الحكومة أو تستثر الاعددا محدوداً جداً من الذين « نضجوا » في اوساط العلم الشعبية .

ومن الطبيعي ان يختلف سير تقدم كل علم سواء في مضمونه أو اسلوبه او سرعة تقدمه أو زمنه ، غير ان هذا الاختلاف لم يكن واسعاجدا ، بل يكاد يكون متوازنا ، علما بأننا لا نستطيع رسم خط زمني دقيق لسير كل علم وتقدمه ، لان المصادر اهتمت بتاريخ ميلاد ووفاة كل عالم وبعض الاحداث البارزة القليلة في حياته ، ولا يخفى ان طبيعة تقدم العلم تطورية وقلما تحدث فيها احداث مميزة حاسمة .

وقد رددت المصادر اسماء عدد من العلماء البارزن المتعاصرين في كل علم ، ووصفتهم بانهم « انتهى اليهم العام » وكان عددهم محدوداً جداً في كل علم ، ولكن اسماءهم كانت تتردد ، فكثر النقل عنهم ، وخصت كتب التراجم كثيراً منهم بتفاصيل وافية ؛ وكان معظمهم يتميز منذ القرن الثاني الهجري باراء واتجاهات خاصة . وكون علماء بعض المدن الرئيسية اراء سادت في مدنهم ، فظهر ما دعى علم اهل تلك المدينة ، كعلم اهل البصرة او علم اهل الكوفة ، او علم اهل الحجاز ؛ ولكن هذه الاقليمية في العلم لم تتعد الفروع في المعرفة وفي اساليب المعالجة ؛ وظل كل منها يسير ضمن النطاق العام لكل علم ؛ وهو نطاق واحد يعبر عن وحدة الفكر ويميزه بميزات خاصة نرجو ان نبحثها وندرس اسباب واثار تكوينها في مقال آخر .

واغلب العلماء الاولين لم يضعوا كتباً الى ان بدأ التصنيف في اواسط القرن الثاني الهجري حين بدأ التصنيف (انظر من ذلك ملاحظة الذهبي في تاريخ الاسلام ج٦ ص ٥ حوادث سنة ١٤٣) .

فلما بدأ التصنيف ، شارك فيه اكثرهم ولكن معظم هذه المصنفات فقدت والقليل الباقي منها يظهر ان كلا من غالبيتهم المطلقة لم يصنف اكثر من كتاب واحد صغير نسبياً ، ولكن منذ زمن الرشيد ، اي في اواخر القرن الثاني الهجري يظهر عدد من العلماء الذين يؤلف كل منهم عددا كبيراً من الكتب والرسائل في ميدان تخصصه الصميم او فيما يقرب من صميم تخصصه .

ويختلف مقدار ما وصل الينا من آراء هوالاء العلماء البارزين ، فبعضهم لم يصل الينا من آرائهم الا نص أو نصوص قليلة جدا ، وبعضهم نقلت عنهم نصوص كثيرة جداً ، جاءت عن طريق ما اقتسبه معاصروهم أو المتأخرون عنهم ، لذلك يصعب علينا تقييم علمهم او معرفة مقدار مساهمتهم في نشر العلم وتقدمه .

ان ترديد الكتب المعتمدة في تقدير العلماء الاشادة بمكانة هؤلاء « المتميزين » لا بد ان يكون مستنداً على عوامل اوسع من مجرد عدد محدود من النصوص والآراء، اذ لا يعقل ان يخلد الانسان في مكانويسمو على معاصريه على اساس عبارة او عبارات محدودة ، فلا بد ان هؤلاء المتميزين ، بل وغيرهم ممن سجلت كتب التراجم، اسماءهم كانت لكل منهم نشاطات علمية ، ومساهمات اوسع بكثير مما وصلنا ، ولذلك ينبغي عند دراسة الحركة الفكرية في الاسلام ان يلتفت الى هذا الامر في تقدير مدى امتداد وسعة هذه الحركة .

لقد عرفنا أسماء المرموقين ومكانتهم عن طريق علماء متأخرين عنهم ، ولا بد ان هؤلاء المرموقين توفرت فيهم الشروط التي كان يراها هؤلاء المتأخرون والتي كانت مستقرة في بيئاتهم ومقبولة عند معظم معاصريهم ، وقد تبلورت بدورها خلال فترة غير قصيرة من الزمن بعد ان سارت عليها واقرتها ضمنيا اجيال من المشتغلين بالعلم في امصار متعددة ، فهي معايير علمية شعبية استقرت نتيجة ممارسات طويلة واعترف بها عمليا في الاوساط العلمية بعيدا عن الضغط او التخطيط الرسمي الجامد . وهي تعبر عن الاتجاهات والمثل السائدة بين اوساط المختصين بذلك العلم في فترة معينة . ومن المعلوم ان بعض هذه الاتجاهات والمثل هي عامة عند الجميع كالصدق والدقة والامانة ومطابقة العقل ، وبعضها خاص في بيئات معينة في ازمنة معينة كالتهجم على القدرية او اتخاذ انكار فكرة خلق القرآن معيارا لعدالة المرموقين عند نقاد القرن الثالث الهجري ، وهي مقاييس لا يمكن ان تقربها اوساط المعتزلة والقدرية .

ولما كانت هذه المقاييس شعبية عملية ، وليست قائمة على قوانين صلبة جامدة ، فهي بدورها خاضعة للتطور ، كما ان تطبيقها غير موحد ، ولذلك كثيراً ما نجد في

علم رجال الحديث تباينا في الاحكام على مكانة الشخص الواحد وعلى درجة توثيقه .

ان الاهتمام بالاسانيد ، والعناية بذكرها في ميادين العلوم المتعددة ، ساعد على تثبيت مكانة العلماء المرموقين ، وقدم مادة اساسية لدراسة تطور تاريخ العلوم والعلماء عند العرب ؛ والواقع ان كل دراسة في نشأة وتطور تاريخ اي علم او عالم لن تكون مقبولة ما لم تأخذ بنظر الاعتبار دراسة هذه الاسانيد ؛ ولا يتسع المجال هنا لدراسة مثل هذه التفاصيل او الاكثار من الامثلة عليها ؛ ولكن اقتصر على ذكر اهميتها في دراسة تاريخ الطب ، فبفضل عناية الرازي بذكر اسانيده في كتاب « الحاوي » العظيم استطعنا ان نعرف اسماء واراء ومكانة عدد كبيراً جداً من الاطباء الاغريق والسريان والعرب ، ما كنا لنعرف عن آرائهم او حتى اسماءهم لو لم يذكرهم الرازي في اسانيده (انظر في ذلك تاريخ الطب الاسلامي لاولمان (بالالمانية) وتاريخ المؤلفات العربية للاستاذ فؤاد سزكين ج ٣) .

غير ان الاهتمام بالاسانيد ادى الى تحديد مقدار ما نقل الينا من المعلومات واقصى كثيراً من معلومات واراء من لم يعتبرهم المؤلفون « معتمدين » او « مرموقين » . كما انه لم ينقل من اراء المرموقين والمعتمدين الا ما يلائم افكار أو اراء او اساليب المتأخرين ؛ فهو بذلك يقدم الماضي « بمنظار معاصر » ، ويختار من التراث ما يلائم الاذواق الفكرية في الازمنة المتأخرة ، ومن دون ان يشير الى مقدارضخامة تراث الماضي أو الى طبيعة وقيمة ما لم يروه من ذلك التراث .

ان العناية بالاسناد تعبر عن الصدق والامانة والتواضع عند العلماء لانها تجعل الراوي يصرح بمصدر افكاره فلا يدعيها او ينسبها لنفسه ، وهي معيار لتقدير غير مباشر لمكانة العلماء الاقدمين وابداعاتهم ؛ كما انها ضرورية في الازمنة التي كانت الوسيلة الكبرى لنقل المعرفة هي المحاضرات الشفهية والسماع ؛ وقد ظلت العناية بها قائمة في اوائل ظهور الكتب ، ولكن انتشار الكتب ادى بالتدريج الى تناقص اهميتها ، والى ان يصبح الاسناد فيما بعد قائماً على الكتب لا على السماع . ويمكن القول بان العناية بالاسناد ظلت ظاهرة واضحة حتى اواخر القرن الرابع الهجري .

الدكتور صالح احمد العلي